جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِب

أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي..

انظروا جلالَ شَبابه..

انظروا نَضرة إهابه..

انظروا أناته وَحِلمَه.. حدَبَه.. وبِرَّه.. تواضُعه وَتقَاه..

انظروا شجاعته التى لا تعرف الخوف.. وَجُودَه الذى لا يخاف الفقر..

انظروا طهره وَعِفَّته..

انظروا صِدْقه وأمانته..

انظروا فيه كل رائعة من روائع الحسن، والفضيلة، والعظمة ثم لا تَعجبوا، فأنتم أمامَ أَشْبَهِ الناس بالرسول خَلْقًا، وَخُلُقًا..

وأسْلَمت معه فى نفس اليوم زوجته «أسماء بنت عُمَيْس»..

وحملا نصيبهما من الأذى ومن الاضطهاد فى شجاعة وغِبْطَة...

فلما اختار الرسول لأصحابه الهجرة إلى الحبشة، خرج جعفر وزوجه حيث لَبثا بها سنين عَددا، رُزِقا خلالها بأولادهما الثلاثة - محمد، وعبد الله، وعَوْف...

* * *

وفى الحبشة كان «جعفر بن أبى طالب» المتحدثَ اللبِقَ، الموفّقَ باسم الإسلام ورسوله..

أنتم أمام من كَنَّاه الرسول بـ «أبى المساكين»..

أنتم تِجَاهَ مَن لَقبَه الرسول بـ «ذى الْجَنَاحَيْن»..

أنتم تِلْقَاءَ «طائر الجنة» الغِرِّيد.. جَعْفَر بن أبى طالب..!! عظيم من عظماء الرَّعيل الأول الذين أَسْهموا أعظم إسْهام فى صَوْغ ضمير الحياة..!!

* * *

أقبل على الرسول صلى الله عليه وسلم مُسْلِمًا، آخذًا مكانه العالى بين المؤمنين المُبكِّرين..

ذلك أن الله أنعم عليه - فيما أنعم - بذكاء القلب، وإشراق العقل، وفِطْنه النفس، وفصاحة اللِّسان..

ولَئن كان يوم «مُؤْتة» الذى سيقاتل فيه فيما بعد حتى يستشهد... أروع أيامه وأمجدها وأخلدها..

فإن يوم «المحاوَرَة» التى أجراها أمام النجاشى بالحبشة، لن يقلَّ روعة، ولا بهاء، ولا مَجدًا..

لقد كان يومًا فَذًّا، ومَشهدًا عجبًا..

* * *

وذلك أَن قريشًا لم يُهدِّئ من ثورتها، ولم يُذْهِب مِن غَيظها، ولم يُطامِنْ من أحقادها، هجرةُ المسلمين إلى الحبشة، بل خَشِيَتْ أن يقوى هناك بأسُهم، ويتكاثَر جمعهم.. وحتى إذا لم تُواتِهِمْ فرصة التكاثُر والقوَّة، فقد عزَّ على كبريائها أن ينجو هؤلاء من نقمتها، ويُفلِتُوا من قبضتها... ويظلوا هناك فى مُهَاجَرِهم أملًا رحْبًا تهتز له نفس الرسول، وينشرح له صدر الإسلام..

هنالك قرر سادتها إرسال مبعوثَين إلى النجاشى يحملان هدايا قريش النفيسة، ويحملان رجاءها فى أن يُخرج من بلاده هؤلاء الذين جاءوا إليها لائذين ومستجيرين...

وكان هذان المبعوثان: عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وكانا لم يسْلما بعد...

* * *

كان «النجاشى» الذى كان يجلس أيامئذ على عرش الحبشة، رجلا يحمل إيمانًا مستنيرًا.. وكان فى قرارة نفسه يعتنق مسيحية صافية واعية، بعيدة من الانحراف، نائية عن التعصب والانغلاق..

وكان ذِكْرُهُ يسبقه.. وسيرته العادلة، تنشر عبيرها فى كل مكان تبلغه..

من أجل هذا، اختار الرسول صلى الله عليه وسلم بلاده دار هجرة لأصحابه...

ومن أجل هذا، خافت قريش ألا تَبلُغ لديه ما تريد فحمَّلت مَبْعُوثَيْها هدايا ضخمة للأساقفة، وكبار رجال الكنيسة هناك، وأوصى زعماء قريش مبعوثيهم ألّا يقابلا النجاشى حتى يعطيا الهدايا للبطارقة أولا، وحتى يُقْنِعاهُم بوجهة نظرهما؛ ليكونوا لهما عَوْنًا عند النجاشى.

وحَطَّ الرسولان رحالهما بالحبشة، وقابلا بها الزعماء

الروحانيين كافة، ونَثَرا بين أيديهم الهدايا التى حملاها إليهم.. ثم أرسَلا للنجاشى هداياه.

ومَضيَا يُوغران صدور القسس والأساقفة ضد المسلمين المهاجرين، ويستنجدان بهم لحمل النجاشى على إخراجهم من بلاده.

وحُدِّدَ يومٌ يَلْقيان فيه النجاشى، ويواجهان بين يديه خُصوم قريش الذين تُلاحِقُهم بكيدها وأذاها.

* * *

وفى وقار مهيب، وتواضع جليل، جلس «النجاشى» على كرسيه العالى، تحفُّ به الأساقفة ورجال الحاشية، وجلس أمامه فى البهو الفسيح، المسلمون المهاجرون، تَغْشَاهُم سَكِينةُ الله، وتُظِلهُمْ رَحْمتهُ.. ووقف مبعوثا قريش يكرّران الاتهام الذى سبق أن ردَّداه أمام «النجاشى» حين أذن لهم بمقابلة خاصة قبل هذا الاجتماع الحاشد الكبير:

«أيها الملك.. إنه قد ضَوَى إلى بلدك غلمان سُفَهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخُلوا فى دينك، بل جاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعَثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردَّهُم إليهم»...

وولّى النجاشى وجهه شَطْر المسلمين، ملقيًا عليهم سؤاله:

«ما هذا الدين الذى فارقْتُم فيه قومكُم، واستَغْنيتم به عن ديننا».. ؟

ونهض «جعفر» قائمًا.. ليؤدى المهمة التى كان المسلمون المهاجرون قد اختاروه لها إبَّان تشاوُرهم، وقبل مجيئهم إلى هذا الاجتماع..

نهض «جعفر» فى تؤدَةٍ وجلال، وألقى نظراتٍ مُحِبَّةً على الملك الذى أحسن جوارهم وقال:

«يأيها الملك...

«كنّا قومًا أهْلَ جاهلية: نعبدُ الأصنام، ونأكل المَيْتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيءُ الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف.. حتى بعث الله إلينا رسولاً مِنَّا، نعرف نسَبَه، وصِدْقه، وأَمَانَتَه، وعفافه، فدعانا إلى اللّهِ لنوحِّده ونعبُدَه، ونخلعَ ما كُنَّا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان..

«وأمَرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلَةِ الرَّحم، وحُسْن الجوار، والكَفِّ عن المحارم والدماء..

«ونهانا عن الفواحش، وقَوْلِ الزُّور، وأكْلِ مال اليتيم، وقذْفِ المُحْصنات.. فَصَدَّقْنَاه وآمنَّا به، واتبعناه على ما جاءه من ربه، فعَبدْنَا الله وحده ولم نُشْرِك به شيئًا، وحَرَّمْنَا ما حرَّمَ علينا، وأحْلَلْنَا ما أحلَّ لنا، فغدا علينا قَوْمُنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان، وإلى ما كُنَّا عليه من الخبائث...

«فلما قهرونا، وظلمونا، وضيَّقُوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ورغِبنا فى جوارك، ورَجَوْنا ألاّ نُظلَمَ عندك»...

* * *

ألقى «جعفر» بهذه الكلمات المُسفرة كضوء الفجر، فملأت نفس النجاشى إحساسًا وروعة والتفت إلى «جعفر» وسأله:

«هل معك مما أُنزل على رسولكم شىء».. !!

قال جعفر: نعم...

قال النجاشى: فاقرأْهُ علىَّ..

ومضى «جعفر» يتلو آيات من سورة مريم، فى أداء عَذْب،

وخشُوع آسر.. فبكى النجاشى.. وبكى معه أساقِفَتُهُ جميعًا..

ولما كَفْكَفَ دُموعه الهاطلة الغزيرة، التفت إلى مبعوثى قريش، وقال:

«إن هذا، والذى جاء به عيسى، ليَخرج من مِشْكاةٍ واحدة... انطلقا فلا والله، لا أُسْلِمهُمْ إليكما»... !!!

* * *

انفضَّ الجمع، وقد نصر الله عباده وآزرهم، فى حين رُزِئَ مندوبا قريش بهزيمة مُنكرة...

لكن «عمرو بن العاص» كان داهيةً واسعَ الحيلة، لا يتجرَّع الهزيمة، ولا يُذعن لليأس..

وهكذا لم يكد يعود مع صاحبه إلى نُزُلهما، حتى ذهب يفكر ويُدبِّر، وقال لزميله:

«واللّهِ لأرجعن للنجاشى غدًا، ولآتينَّه عنهم بما يَسْتَأْصِلُ خَضْرَاءَهم»...

وأجابه صاحبه: «لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا»...

قال عمرو: «والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، كبقية العِباد»...

هذه إذن هى المكيدة الجديدة التى دبَّرها مبعوث قريش للمسلمين كى يلجئهم إلى الزاوية الحادَّة، ويضعهم بين شِقَّىِ الرَّحى، فإن هم قالوا: إن عيسى عبد من عباد الله، حركوا ضدهم أضغان الملك والأساقفة... وإن هم نَفَوْا عنه البشرية، خرجوا من دينهم...!!

* * *

وفى الغداة أَغَذَّا السير إلى مقابلة الملك، وقال له عمرو: «أيها الملك: إنهم ليقولون فى عيسى قولاً عظيمًا»...

واضطرب الأساقفة...

واهتاجتهم هذه العبارة القصيرة...

ونادوا بدعوة المسلمين - مرة أخرى - لسؤالهم عن موقف دينهم من المسيح...

وعلى المسلمون بالمؤامرة الجديدة، فجلسوا يتشاورون...

ثم اتفقوا على أن يقولوا الحق الذى سمعوه من نبيهم عليه

الصلاة والسلام، لا يحيدون عنه قيد شعرة، وليكن ما يكون..!!

وانعقد الاجتماع من جديد، وبدأ النجاشى الحديث سائلا جعفر:

«ماذا تقولون فى عيسى»..؟؟

ونهض «جعفر» مرة أخرى كالمنار المضيء وقال:

«نقولُ فيه ما جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: هو عَبْدُ الله ورسولُه، وكلمته ألقاها إلى مريم، ورُوحٌ منهُ»..

فهتف النجاشى مُصَدِّقًا ومُعْلِنًا أن هذا هو ما قاله المسيحُ عن نفسه...

لكنّ صفوف الأساقفة ضَجَّت بما يُشْبه النكير...

ومضى النجاشىُّ المستنيرُ المؤمن يتابع حديثه قائلا للمسلمين:

«اذهبوا، فأنتم آمنون بأرضى، ومن سبَّكم أو آذاكم، فعليه غُرْمُ ما يفعل»..

ثم التفتَ صَوْب حاشيته، وقال وسبَّابتُهُ تشيرُ إلى مَبعوثَىْ قريش:

«ردُّوا عليهما هداياهُما، فلا حاجة لى بها..

«فو الله ما أخَذَ الله منى الرِّشوة حين ردَّ عَلَىَّ مُلكى، فآخذ الرِّشوة فيه».. !!

وخرج مبعوثا قريش مخذولَيْن، حيث وَلَّيا وجهيهما من فورهما شطر مكة عائدين إليها...

وخرج المسلمون بزعامة «جعفر» ليستأنفوا حياتهم الآمنة فى الحبشة، لايثين فيها كما قالوا: «بخير دار.. مع خير جار..» حتى يأذن الله لهم بالعودة إلى رسولهم وإخوانهم وديارهم..

* * *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتفل مع المسلمين بفتح «خيبر» حين طلع عليهم قادمًا من الحبشة «جعفر بن أبى طالب» ومعه مَن كانوا لا يزالون بالحبشة من المهاجرين..

وأُفْعِمَ قلبُ الرسول عليه الصلاة والسلام بمقدمه غبطة، وسعادة، وبشرًا...

وعانقه النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول:

«لا أدرى بأيِّهما أنا أُسَرُّ: بفتح خَيْبر... أم بقدوم جَعْفر...».

وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى مكة، حيث اعتمروا عُمْرة القضاء، وعادوا إلى المدينة، وقد امتلأت نفس «جعفر» روعة بما سمع من أنباء إخوانه المؤمنين الذين خاضوا مع النبى صلى الله عليه وسلم غزوة «بدر»، و«أُحُد»... وغيرهما من المشاهد والمغازى... وفاضت عيناه بالدمع على الذين صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه، وقَضَوْا نحبهم شهداء أبرارًا...

وطار فؤاده شوقًا إلى الجنة، وأخذ يتحين فرصة الشهادة، ويترقب لحظتها المجيدة..!!

* * *

وكانت «غزوة مؤتة» التى أسلفنا الحديث عنها: تتحرك راياتها فى الأفق مُتَأَهِّبة للزحف، وللمسير...

ورأى «جعفر» فى هذه الغزوة فرصة العمر، فإمَّا أن يحقق فيها نصرًا كبيرًا لدين الله، وإما أن يظفر باستشهاد عظيم فى سبيل الله...

وتقدم من رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُوه أن يجعل له فى هذه الغزوة مكانًا...

كان «جَعْفَر» يعلم علم اليقين أنها ليست نزهة... بل

ولا حربًا صغيرة... إنما هى حرب لم يَخُضِ الإسلام مثلها من قَبْلُ... حرب مع جيوش إمبراطورية عريضة باذخة، تملك من العتاد والأعداد، والخبرة والأموال ما لا قِبَلَ للعرب ولا للمسلمين به، ومع هذا طار قلبه شوقًا إليها، وكان ثالثَ ثلاثة جَعلهم الرسول قواد الجيش وأُمراءه...

وخرج الجيش، وخرج جعفر معه...

والتقى الجمعان فى يوم رهيب...

وبينما كان من حق «جعفر» أن تأخذه الرهبة عندما بَصُر بجيش الروم ينتظم مائتى ألف مُقاتل، فإنه على العكْس، أخذته نَشْوَة عارمة إذ أحسَّ فى أَنَفَةِ المؤمن العزيز، واعتداد البطل المقتدر أنه سَيقاتلُ أكْفاءً له وأندادًا...!!

وما كادت الراية توشك على السقوط من يمين «زيد بن حارثة»، حتى تلقاها «جعفر» باليمين... ومضى يقاتل بها فى إقدام خارق.. إقدام رجل لا يبحث عن النصر، بل عن الشهادة...

وتكاثر عليه وحوله مقاتلة الروم، ورأى فرسه تعوق حركته فاقْتَحَم عنها فنزل... وراح يُصَوب سيفه ويُسَدِّده إلى نحور أعدائه كنقمة القَدَر... ولمح واحدًا من الأعداء يقترب من فرسه

ليَعْلو ظهرها، فعزَّ عليه أن يمتطى صهوتها هذا الرِّجس، فبسط نحوها سيفه، وعَقَرَها... !!

وانطلَق وسط صفوف الروم المتكالبة عليه يُدَمْدِمُ كالإعصار، وصوته يتعالَى بهذا الرَّجَز المتوهج:

يـاحَبَّذَا الجنـةُ واقترابُهـا طَيِّبـةً، وبـاردًا شـرابُهـا
والروم رُومٌ، قد دنا عذابها كـافـرةٌ بعيـدةٌ أنسـابُهـا
عَلَيَّ إذْ لَاقَيْتُها ضِرابُها

وأدرك مُقاتلو الروم مقدرة هذا الرجل الذى يُقاتل، وكأنه جيشٌ لَجِب...

وأحاطوا به فى إصرارٍ مجنون على قتله.. وحُوصِر بهم حصارًا لا منفذ فيه لنجاة..

وضربوا بالسيوف يمينه، وقبل أن تسقط الراية منها على الأرض تلقاها بشماله.. وضربوها هى الأخرى، فاحتضن الراية بِعَضُدَيْه..

فى هذه اللحظة تركَّزت كل مسئوليته فى ألّا يدعَ راية رسول الله صلى الله عليه وسلم تلامِسُ التراب وهو حىّ..

وحين تكوَّمَتْ جثته الطاهرة، كانت سارية الراية مغروسة بين

عَضُدَىْ جُثْمانه، ونادت خَفَقَاتُها «عبد الله بن رواحة» فشق الصفوف كالسهم نحوها، وأخذها فى قوة، ومضى بها إلى مَصَيرٍ عظيم.. !!

* * *

وهكذا صنع «جعفر» لنفسه موتة من أعظم مَوْتات البشر.. !!

وهكذا لقى ربه الكبير المُتعال، مُضَمَّخًا بفدائيته، مُدَّثَّرًا ببطولته..

وأنبأ العليمُ الخبير رسوله بمصير المعركة، وبمصير جعفر، فاستودعه الله، وبكى..

وقام إلى بيت ابن عمه، ودعا بأطفاله وبنيه، فَتَشَمَّمَهُم، وَقَبَّلَهم، وَذرِفَتْ عيناه...

ثم عاد إلى مجلسه، وأصحابه حافُّون به، ووقف شاعر الإسلام «حسَّان بن ثابت» يرثى جعفرًا ورفاقه:

غَداةَ مَضَوْا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموتِ مَيمونُ النقيبةِ أزهَرُ
أغَرَّ كضوءِ البدر من آل هاشم ... أبيٌّ إذا سِيمَ الظُّلامَةَ، مِجْسَرُ
فطاعَنَ حتى مالَ غيرَ مُوَسَّدٍ ... لمعترك فيه القَنا يتكسَّرُ
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنانٌ، ومُلْتفُّ الحدائق أخضَرُ

وكُنا نرى فى جعفر من محمدٍ وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمرُ
فمازال فى الإسلام من آل هاشم دعائمُ عزٍّ لا يَزُلْنَ ومفْخَرُ

وينهض بعد «حسَّان»، «كعب بن مالك»، فيرسِلُ شِعره الجزْل

وَجْدًا على النَّفرِ الذين تتابَعوا يومًا بِمُؤْتَةَ، أَسْنِدُوا لم يُنقلوا
صلى الإلٰهُ عليهمُو من فتية وسقى عظامَهم الغمامُ المسْبِلُ
صَبَرُوا بمُؤْتَةَ للإلٰهِ نفوسَهم حذرَ الرَّدى، ومخافةً أن يَنْكُلوا
إذ يهتدون بجعفر ولواؤه قُدَّام أَوَّلهم، فَنِعْم الأَوَّلُ
حتى تفرَّجت الصفوف وجعفر حيث الْتَقى وعْث الصفوف مُجَدَّل
فتغير القمرُ المنير لِفَقده والشمس قد كَسَفَتْ، وكادت تأفِل

* * *

وذهب المساكين جميعًا يبكون أباهم.. فقد كان جعفر رضى الله عنه «أبا المساكين»..

يقول أبو هريرة:

«كان خير الناس للمساكين جعفر بن أبى طالب»...

أجل، كان أجود الناس بماله وهو حَىّ.. فلما جاء أجلُه أبى إلا أن يكون من أجود الشهداء وأكثرهم بَذْلاً لروحه وحياته..

يقول عبد الله بن عمر:

«كنتُ مع جعفر فى غزوة مُؤْتة، فالْتَمسناه، فوجدناه وبه بضع وتسعون ما بين طعنة ورَمْية».. !!

بضع وتسعون طعنة سيف، ورمية رُمح.. ؟؟ !!

ومع هذا، فهل نال القتلة من روحه ومن مصيره مَنالا.. ؟؟

أبدًا.. وما كانت سيوفهم ورماحهم سوى جِسْر عبَر عليه الشهيد المجيد إلى جوار الله الرحيم الأعلى، حيث نزل فى رحابه مكانًا عَلِيًّا..

إنه هنالك فى جنان الخُلْد، يحمل أوسمة المعركة على كل مكان من جسدٍ أنهكَتْه السيوف والرماح..

وإن شئتم، فاسمعوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

«لقد رأيتُه فى الجنَّة.. له جناحان مُضَرَّجان بالدماء.. مَصْبُوغ القوادِم»... !!